

الرحالة العرب والأدب الجغرافي السياحي

نعمان دهش صالح العقيلي
استاذ مساعد / قسم الجغرافية
كلية الآداب - جامعة بغداد

مقدمة

ان التنقل من مكان لآخر ظاهرة صاحبت الانسان في حياته منذ التدم
اذ أن حبه للاستطلاع وضرورة الحصول على حاجاته المعاشية الاساسية
حملته على التجوال والانتقال ، ولذلك فان تاريخ الرحلات والاسفار طالت
ام قصرت يعود الى اقدم العصور عندما كان الانسان يقطع المسافات زرافات
ووحداً بحثاً عن اسباب الحية وطيب الاقامة •

ويحدثنا ادب الرحلات الى ان العرب كانوا سباقين الى مجابهة
الصعاب والسير في شعاب الارض وحزونها وركوب البحر ومخاطبة اهواله
ومخاطره ، فساحوا في فيافي جزيرتهم واتصلوا بما جاورهم من الاقوام ،
ففي القرن الرابع الهجري حيث بلغت الدولة العباسية أوج قوتها ، تزايد
حب الناس للسفر والاطلاع على البلاد الاخرى شأن الامم في ايام عزها ،
وقد اثبت العرب منذ ان اتصلوا بالعالم الخارجي أنهم قوم على قدر كبير
من الحصافة والمرونة في التعامل مع الآخرين ذوو حيوية وخيال فسيحتج ،
وقد كان العرب في ذلك العصر غاية في النشاط لاثحول بينهم وبين مرادهم
صعوبات الطريق ولاغربة اطوار الاقوام واختلاف طراز معاشهم ، فلا غرو
ان اقاموا علاقات تجارية وطيدة مع من استقر من هؤلاء في اقصي المعمورة
طلباً لحاجات الدولة العربية وتوكيدا لوجودها • فكونوا علائق مع الصين
والهند وبعض البقاع الروسية كما توغلوا في مجاهل افريقيا وكان هؤلاء
من اهل العلم والمعرفة دونوا مشاهداتهم ونظموها تنظيماً علمياً ينفع
الآخرين ، وكان من نتائج ذلك ان غني الرحالة العرب بوضع كتب عن
هذه الرحلات يستدل بها المسافر وتسترشد بها الدولة لاداء اعمالها الادارية
وتوطيد علاقاتها السياسية واتاحت الدولة اسباب السفر ووفرت للمسافرين
اماكن الاقامة من نزل وربط • وكانت هذه الكتب مثل كتب السياحة اليوم
تبين المسافات بين البلاد واخلاق الامم وعاداتهم ومعتقداتهم وطراز معاشهم
ومايجود في كل مكان من محاصيل زراعية وما اعتادوا عليه من مكاييل

واوزان واسماء المشهورين من الناس في كل قطر .

وقد تابعت وتطورت امثال هذه الرحلات حتى برزت في التسرون الوسطى بشكل اكثر دقة وعلمية ، وكان العرب ابرز روادها لاسيما وان بلاد الاسلام كانت من اكثر بلاد العالم تمدنا في ذلك الوقت ، وكانت بغداد ابتداء من القرن التاسع الميلادي اكثر مدن العالم ثراء ومركزا للنشاط الاقتصادي فقد اليها القوافل التجارية من آسيا ومنها توجه الى اوربا وافريقيا . وساعد هذا النشاط التجاري الواسع الى تطور المعرفة الجغرافية وتشعبت حقولها بصورة تتفق وحاجة الناس والدولة حتى ان مؤلفاتهم لانزال تعد ركيزة للارشاد السياحي في كثير من منطقي العلم القديم (١) . وبهذا الصدد يقول المستشرق الروسي كرتسكوفسكي في موسوعته لتاريخ الادب الجغرافي العربي : لا يقتصر محيط الادب الجغرافي على البلاد العربية وحدها بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الاولى عن جميع البلاد التي بلغها العرب او التي تجمعت لديهم معلومات عنها وذلك بنفس الصورة المتنوعة التي وصفوا بها بلاد الاسلام ، وقد يحدث احيانا ان تمثل المسادة الجغرافية العربية ، اما المصدر الوحيد او الاله لتاريخ حقبة معينة لقطر ما وقد اتخذت الرحلات طابع الحيوية والنشاط منذ القرون الاولى للخلافات اذ ان فروض الاسلام في حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا . كما استخدمت التجارة الطرق البرية والبحرية وهكذا ساعد الدين والتجارة على توسع مدى الاسفار كما ساعد العلم في ذلك ايضا ، اذ رحل الناس في طلب العلم من الاندلس الى بخارى ومن بغداد الى قرطبة ، (٢) .

ويضيف قائلا (ويمكن القول بانه وضح حاليا لعلماء اوربا بصورة لا تقبل الشك ان الاهمية الاساسية للادب الجغرافي العربي تستند على مااسهم به من مادة جغرافية جديدة لاعلى النظريات التي اعتنتها . ومنذ البداية يجب ملاحظة الاتساع الهائل في مدى المعلومات الجغرافية لدى العرب عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم . فقد عرف العرب اوربا

بأجمعها باستثناء أقصى شمالها وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا كما عرفوا
أفريقيا الشمالية الى خط عرض ١٠ شمالا وساحل أفريقيا الشرقي الى قرب
مدار الجدي • وترك لنا العرب وصفاً مفصلاً لجميع البلدان من اسبانيا غرباً
الى تركستان ومصب السند شرقاً بما في ذلك وصفاً دقيقاً لجميع المراكز
المأهولة والمناطق المزروعة والصحارى وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة
واماكن وجود المعادن ، ولم يقتصر اهتمامهم على ظواهر الجغرافية
الطبيعية او الظروف المناخية فحسب بل الحياة الاجتماعية والصناعة
والزراعة واللغة والتعاليم الدينية • كما لم تقتصر معرفتهم على بلاد الاسلام
وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان • اذ
لم تكن معرفة الآخرين بالبلاد الواقعة الى الشرق من بحر قزوين كانت
كاملة كما لم تكن لديهم اية فكرة عن ساحل شرق اسيا الى الشمال من
الهند الصينية • هذا بينما عرف العرب طريق الياس الذي يرتفع الى اعالي
نهر أرتيش وينسي وعرفوا سواحل آسيا الى كوريا شمالا • ولم تحظ
داخلة أفريقيا بوصف مفصل الا بعد ان حط العرب رحالهم فيها وقد
استمرت معلوماتهم تمثل القول الفصل من هذا الصدد لحين ظهور
المستكشفين الجغرافيين الاوربيين في القرن التاسع عشر • هذا وقد اثبت
البحث العلمي المعاصر اهمية المعلومات التي جمعوها عن بلاد نائية مثل
ارخيل الملايو واسكندنيادة وجنوب شرق اوربا (٣) •

التراث العربي السياحي :

١ - اشهر الرحالة العرب واهمية ذلك في الدراسات الحديثة :

ذكرنا انفا ان الادب السياحي الذي تركه الرحالة العرب لايزال
يعتبر ركيزة للارشاد السياحي في كثير من البلدان ، ويذكر محدود كابل
في كتابه السياحة الحديثة (ان السياحين الفرنسيين المتخصصين في وضع
كتب الارشاد السياحي عن منطقة غرب أفريقيا المتحدة بالفرنسية لايزالون
يعتمدون في ابراز أصالة وعراقة تلك المنطقة سياحيا على المخطوطات التي
ترجمها المستعربون) (٤) • وان الدراسة التي وضعها الاستاذ موني عن

تأليخ افريقيا الغربية (قد اعتمدت على الخارطة التي وضعها الجغرافي العربي الخوارزمي المتوفي عام ٨٣٣م والذي تولى تنقيح واصلاح الترجمة العربية لكتاب الجغرافيا الذي وضعه بطليموس كما اعتمد على كتاب ابن حوقل (صورة الارض) وضمنه فصلا عن وصف غرب افريقيا عام ٩٨٨ (٥) . ولم يجد الباحثون المحدثون من اهل ارمينيا افضل مما ذكره ابن حوقل عن الصناعة في بلادهم ولا سيما صناعة السجاد ، كما اعتمد على كتاب المسالك والممالك للبكري الذي توفي عام ١٠٩٤ م ، كما اعتمد على ابن بطوطة عن وصف رحلاته الى غانا التي كانت تضم انذاك جمهورية مالي واجزاء من فولتا العليا وغينيا وموريتانيا (٦) . وظهر من دراسة احتمالات التنمية السياحية في جزيرة موريشيس في جنوب غرب المحيط الهندي ، ان كل ما كتب عن هذه المنطقة اعتمد على ما خلفه الجغرافيون والرحالة السياحيون العرب . فقد عرف البحارة العرب بوجود هذه الجزيرة قبل ظهور البرتغاليين بمدة طويلة ، ومن الأرجح ان العرب هم الذين اخبروا البرتغاليين بوجودها فقد كانوا يجوبون سواحل هذا المحيط على امتداد شاطئ افريقيا الشرقي بسفنهم التجارية واقاموا فيه محطات تجارية وان العرب هم الذين اكتشفوا جزر القمر (كومور) لم يكن قد سكنها احد من قبل فاستقروا فيها وجعلوها مركزا للانتقل الى جزيرة مدغشقر (٧) .

كما ان المتخصصين من اهل جزيرة (سرى لانكا) في وضع كتب الارشاد السياحي يدعمون ما يكتبونه بما ورد في المراجع العربية عن جزيرة التي كان يطلق عليها العرب سرنديب ويسمىها البلاذري جزيرة الياقوت ، وكذلك ماجاء في المسح السياحي في النيبال وافغانستان على ما أورده البيروتي (وقد تضمنت التقارير السياحية التي قدمها محمود كامل الى الامم المتحدة والتي أصبحت من وثائقها استثمارات بما ورد في المراجع العربية عن المغريات السياحية لمختلف مناطق افريقيا واسيا للتدليل على عراقة هذه المغريات وعلى اصالة خلفيتها التاريخية) (٨) .

والحقيقة ان كل رحلة قام بها الرحالة العرب تحوى الشيء الكثير
عن الحقائق الجغرافية التي تعتمد عليها الحركة السياحية العالمية في الوقت
الحاضر مما يؤلف جزء من الحضارة العربية والمكانة التي تشغلها في تاريخ
البشرية ، فقد ثمن المستشرق كرتشمكوفسكي دور الحضارة العربية حيث
يقول (ان المكانة التي تشغلها الحضارة العربية في تاريخ البشرية لامر
مسلم به من الجميع في عصرنا هذا ، وقد وضع بجلاء في الخمسين عاما
الاخيرة فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لنفسها طرقا
ومسالك جديدة في العصور الوسطى ولا زالت حية الى ايامنا هذه اعني علوم
الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا ، اما فيما يتعلق
بالادب الفني العالمي فان العرب قد اسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءا
اساسيا من التراث العام للبشرية كما امتد تأثيرهم كذلك الى عدد كبير
من المصنفات والفنون الادبية التي نشأت في بيئات غير عربية)^(٩) .

وتتابع اهتمام العرب في السفر والارتحال عبر أزمنة مختلفة ، وقد
ترك كل منهم مؤلفا ينفع الناس . وسنعرض لبعض من اشتهر منهم ايجازا
واطنا بحسب مكانته ومؤلفه في هذا المجال .

١ - اليعقوبي :

وهو ابو العباس احمد بن يعقوب بن وهب المعروف باليعقوبي والمكنى
ابو العباس . وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري
(التاسع الميلادي) وبالرغم من انه ولد في بغداد فقد قضى معظم حياته في
مصر والمغرب ، وقد اشتهر في رحلاته في ارمينيا وخراسان والهند
وتركستان والاندلس والمغرب ومصر والشام والعراق ، وكان يسأل اهل
البلدان عن عاداتهم ونحلهم ومكوناتهم والمسافات بين مدنها وزراعاتهم
وصناعاتهم وقد حظى كتابه الموسوم (كتاب البلدان) بشهرة واسعة في
العالم الغربي^(١٠) .

٢ - المسعودي :

هو ابو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبدالله الشهير بالمسعودي حيث ينتسب الى الصحابي ابن مسعود . ولد في بغداد وعاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ويعتبر المسعودي من طليعة الرحالة الذين استفادوا من تجاربهم ومشاهداتهم في اغناء الجغرافية العربية وقد دامت رحلاته حوالي ربع قرن وتميز المسعودي بفزارة التأليف ومن اشهرها (مروج الذهب ومعادن الجوهر) ويتكون من عشرين جزء و (التبيين والاشراف) وكتابه الثالث اخبار الزمان ويقول انه يتكون من ثلاثين جزءا لم يصلنا منه سوى جزءه الاول^(١١) .

٣ - ابن حوقل :

هو ابو القاسم محمد بن علي الموصللي المشهور بابن حوقل ، ولد في بغداد وعاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وقد اشتهر برحلاته الواسعة في العالم الاسلامي حيث دامت ما يقرب من ثلاثين عاماً وكتابه صورة الارض يعتبر من ابرز واهم الكتب الجغرافية العربية المبكرة وقد تميز كتابه بمنهجه الذي يعتبر الخارطة جزءا لا يتجزأ من النص بل اعتبرها اهم من النص . وقد قسم ابن حوقل العالم الاسلامي الى ٢٢ اقليما . ثم تناول بالدراسة كل اقليم وابرز معالمه الطبيعية والمناخية ووارد المياه واهم زراعاته وصناعاته واهم مدنه كما تحدث عن سكانه وعاداتهم وتقاليدهم وحكامهم ونبذه من تاريخ كل اقليم ، ويلقى كتابه الان عناية كبيرة عند ابناء ارمينيا نظرا لما ورد من معلومات واقعية عن بلادهم فيه^(١٢) .

٤ - ابن فضلان :

هو احمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد ، وكان رئيس الوفد الذي أرسله الخليفة المقتدر بالله الى ملك الصقالبة لكي يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الاسلام . وقد مكثه هذه الرحلة من الاطلاع على بلدان عديدة ويخالط شعوبا متعددة كالترك والخزر والروس

والصقابة ، وقد سجل مشاهداته اثناء رحلته (٩٢١) م وعني عناية خاصة بوصف عادات السكان وتقاليدهم كما سجل ملاحظاته عن مناخهم وقد تحدث عن ظاهرة قصر الليل وطول النهار في الصيف ونقيضها في الشتاء (١٣) .

٥ - المقدسي :

هو شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احد البشارى المقدسي ، فقد تجول في انحاء العالم الاسلامي يجمع المعلومات لكتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) عن طريق المشاهدة والاستقصاء ، حيث زار العراق ومصر وجزيرة العرب وبلاد فارس واقطار المغرب العربي وقد توفي ٣٩٠ هـ ، ١٠٠٠ م (١٤) .

٦ - الادريسي :

هو ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن ادريس بن يحيى المشهور بالادريسي ، ولد في مدينة سبتة في المغرب (٤٩٣ هـ - ١١٠٠ م) ، وقد طاف في الاندلس وسواحل اوربا الغربية بما فيها سواحل انكلترا وفرنسا وشبه جزيرة ايبيريا كما تجول في بلدان شمال أفريقيا ويعتبر الادريسي اول جغرافي عربي تنقل على نطاق واسع في القارة الاوربية ويعتبر اشهر جغرافي عرفته اوربا وظل كتابه وخرائطه معتمدة في الدراسات الجغرافية الاوربية لفترة غير قصيرة . واشهر ما انجزه كتابه المعروف (نزهة المشتاق في معرفة الافاق) والكرة الفضية التي رسم عليها خارطة الارض وكتابه روض الانس ونزهة النفس ، الذي عرف ايضا باسم كتاب المسالك والممالك ، وقد توفي في سبتة عام ٥٦٠ هـ - ١١٦٦ م (١٥) .

٧ - ابن جبير :

هو ابو الحسن محمد بن جبير الكتاني البنسي ولد في بلنسية واستوطن في غرناطة وقد بدأ في تدوين مشاهداته منذ ان شرع بالتوجه الى مكة لاداء فريضة الحج للمرة الاولى كفارة عن كؤوس خمر اضطر الى

بحسائنها بامر من حاكم غرناطة • وقد سجل مشاهداته وانطباعاته عن المدن والبلدان والشعوب التي تعرف عليها مما جعل رحلته سجلا امينا للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لاقطار البحر المتوسط الاسلامية فضلا عما تميزت به من وصف حي للمدن • وعن اشارات تاريخية وطبوغرافية ومناخية • وبالرغم من ان عنوان الرحلة الاصلي هو (تذكرة الاخبار عن اتفاقيات الاسفار) فقد اشتهرت باسم رحلة ابن جبير ، وقد توفي في الاسكندرية ٦١٤ هـ - ١٢١٧ م ^(١٦) •

هذه نبذة مختصرة عن بعض الرحالة العرب على سبيل المثال والايجاز وسوف تعطي الامثلة عن رحلة ابن بطوطة نظرا لسعتها وشموليتها بصورة اكثر تفصيلا •

ب - ابن بطوطة

هو شمس الدين ابو عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة • ولد في طنجة عام ٧٠٣ هـ - ١٣٠٤ م ويعتبر ابن بطوطة سيد الرحالة العرب والمسلمين وقدر ماقطعه في رحلاته مايربو على (٧٥) الف ميل ^(١٧) • وهو بذلك يكون قد قطع مايزيد على ثلاثة امثال محيط الكرة الارضية في ظروف مواصلات صعبة ولم يستطيع اي فرد لحد الان ان يقطع مثل هذه المسافة وبذلك فان (ابن بطوطة رحالة العصور الوسطى الاوحد الذي فاق برحلته تلك التي قام بها ماركو بولو في سعتها • وكان اخر فرد من الجغرافيين والرحالة المسلمين الذي بدأت وثائقه في القرن الثامن ، واسهامه للحضارة عموما والجغرافيا خاصة تستحق ان تكون معروفة على نطاق اوسع كثيرا مما هي عليه) ^(١٨) •

انه لم يكن نقالة اعتمد على كتب الغير بل كان رحالة انتظم محيط اسفاره عددا كبيرا من الاقطار ^(١٩) •

وكان ابن بطوطة يهوى السفر ويستهدف الرحلة لذاتها ويضرب في

مجاهل الارض استجابة لعاطفة لا تقاوم ورغبة جارفة للتعرف على الاقطار والشعوب وهو على نقیض الغالية العظمى من الجغرافيين العرب لم يجمع مادته من صفحات الكتب بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية وعن طريق محادثاته مع شخصیات تعرف عليها عرضا من خلال رحلاته (٢٠) .

خرج للحج مع جماعة من مدينة طنجة مسقط رأسه يوم الخميس ٢ رجب عام ٧٢٥ هـ مقبدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول (ص) وكان عمره ٢٢ سنة .

وفي الاسكندرية اقام في صياقة العالم برهان الدين الاعرج لمدة ثلاثة ايام قال (دخلت عليه يوما فقال لي : اراك تحب السياحة والجولان في البلاد فقلت له نعم اني احب ذلك ، ولم يكن بخاطري التوغل في البلاد القصية من الهند والصين ، فقال لا بد لك ان شاء الله من زيارة اخي فريد الدين في الهند واخي ركن الدين زكريا بالسند واخي برهان الدين بالصين ، فاذا لقيتهم فابلغهم مني السلام ، ففجبت من قوله والقي في روعي التوجه الى تلك البلاد ولم ازل اجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وابلقتهم سلامه) (٢١) .

ثم يصف القاهرة ويسمىها مدينة مصر فيقول (هي ام البلاد وقرارة فرعون ذى الاوتاد ، ذات الاقاليم العريضة والبلاد الارضية المنتهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالم وجاهل وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبیه وشریف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها) (٢٢) . ويضيف (ان بمصر من السقائين على الجمال (١٢) الف سقاء وان بها (٣٠) السف مكار وان بيلها من المراكب (٣٦) الف للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنذرة الى الاسكندرية ودمياط بانواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان للنزهة

والفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة واهل مصر ذو طرب وسرور
ولهو (٢٣) ، وذكر الاهرام واعتبرها من المعجائب وقد بنيت لتبقى
خالدة (٢٤) .

وعن حمص يقول (وهي مدينة مليحة واشجارها معروفة وانهارها
متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز .. واهل حمص عرب
لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد) ، اما مدينة حماه
فهي (احدى امهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة .. تحفها البساتين
والجنت ، عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى
بالعاصي وبحماه الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي اذا كسرت نواته
وجدت في داخلها لوزة حلوة (٢٥) .

ويذكر عن حلب قلعها فيقول (وقلعة حلب تسمى الشهباء وبداخلها
جبلان ينبع منها الماء ، فلا تخاف الظمأ ويطيف بها سوران وعليها خندق
عظيم ينبع منه الماء وسورها متداني الابراج ولما قصد قازان طاغية التتر حاصر
هذه الثلعة اياما ونكص عنها خائبا) . ويصف جبال لبنان وصفا سياحيا اذ
يقول (وسافرت الى جبل لبنان وهو من اخصب جبال الدنيا فيه اصناف
الفواكه وعيون الماء والظلال الوفرة ولا يخلوا من المنقطعين الى الله تعالى
والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك (٢٦) .

ويطلب في وصف دمشق (وقد أهدقت البساتين بها احداق الهالة
بالقمر والاكمام بالثمر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر وكل
موضع لحظت بجبهاتها الاربع نضرتة البانعة قيد البصر ، ولله صدق القائلين
عنها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لاشك فيها وان كانت في السماء
فهي تساميتها وتحاذيها (٢٧) .

ويصف مدينة البصرة فيقول هي (احدى امهات العراق الشهيرة
الذكر .. ذات البساتين الكثيرة والفواكه الاثيرة .. وليس في الدنيا اكثر
نخلا منها .. والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر فاذا

كان المد غلب الماء المالح على العذب واذا كان الجزر غلب الماء على المالح (٢٨) .

اما عن مدينة بغداد فيقول (مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف متوى الخلفاء ومقر العلماء ولبغداد جسران اثنان والناس يعبرونها ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة وبغداد من المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة احد عشر مسجدا .. وحمامات بغداد كثيرة وهي من ابداع الحمامات ، واكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه انه رخام اسود) (٢٩) .

ثم يصف الكرخ وهو الجانب الغربي كما يسميه (وهو الذي عمر اولاً وهو الان خراب اكثره وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفي ثمان منها المساجد الجامعية) ومن ثم يصف الرصافة ويسميه بالجانب الشرقي (وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب واعظم اسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الامثال تضرب بحسنها في اخره المدرسة المستنصرية) (٣٠) وقد نظم الناس في مدح بغداد وذكر محاسنها فاطنبو فيها . قال الامام القاضي ابو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي (٣١)

طيب الهواء ببغداد يشوقني قربا اليها وان عاقت مقادير
وكيف ارحل عنها اليوم اذ جمعت طيب الهوائين ممدود ومقصور

ويمر بتكريت في طريقه الى الموصل فيقول (ووصلنا الى مدينة تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الارعاء مليحة الاسواق كثيرة المساجد واهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة في الجهة الشمالية منها ، ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها) ، ثم يقول ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهناك ارض سوداء فيها عيون تنبع بالقار (٣٢) ، ويصف مدينة الموصل بقوله (هي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتاع

عليها سور محكم البناء .. وللموصل رضى كبير فيه المساجد والحمامات
والفنادق والاسواق .. وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام
وتل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه ، وأهل
الموصل لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومجبة في الغريب واقبال
عليه (٣٣) .

ويصف مدينة صنعاء وصفا طبيعيا ومناخيا مقارنا حيث يقول فيها
(وهي قاعة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالاجر
والجص ، كثيرة الاشجار والقواكه والزرع معتدلة طيبة الماء ومن الغريب
ان المطر ببلاد الهند واليمن والجيشة انما ينزل في ايام القيظ واكثر ما يكون
نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الاوان ، فالمسافرون يستعجلون عند
الزوال لثلا يصيهم المطر واهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لان امطارها
وابله متدفقة (٣٤) .

ويبدو انه قد مارس التجارة عند مايقول (ولما وصلت الى بلاد السند
واشترت من التجار الخيل والجمال والممالك وغير ذلك ، ولقد اشترت
من تاجر عراقي من اهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو
ثلاثين فرسا وجملا عليه حمل من الثياب ، فانه مما يهدى الى السلطان
وذهب التاجر المذكور الى خراسان ثم عاد الى الهند وهناك تقاضى مني ماله
واستفاد بسببي فائدة عظيمة (٣٥) .

وبعد ان يذكر حاصلات الهند الزراعية كما يؤكد على الامطار
الموسمية واثرها فيقول (ويطبخون الماش مع الارز ياكلونه بالسمن
ويسمنونه كشرى .. وبلادهم طيبة التربة واما الارز فانهم يزرعونه ثلاث
مرات في السنة وهو من اكبر الحبوب عندهم (٣٦) كما يتطرق الى عادة
حرق المرأة نفسها مع زوجها اذا مات قبلها .

ويتكلم عن زيارته الى الصين ومما يذكره عن بعض احوال اهل
الصين فيقول (واهل الصين كفار يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم كما .

تفعل الهنود .. وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين يتفردون
بسكنائهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون
وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويسمونها في أسواقهم ، وهم
أهل رفاة وسعة عيش الا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس وترى
التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله وعليه جبة قطن خشنه (٣٧) ،
ويذكر ايضا استخدامهم النقود الورقية بدلا من المعدنية (٣٨) .

وبلاد الصين امن البلاد واحسنها حالا للمسافرين فان الانسان يسافر
منفردا مسيرة تسعة اشهر وتكون معه الاموال الطائلة فلا يخاف عليها ،
وترتيب ذلك ان لهم في كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به مع
جماعة من الفرسان والرجال فاذا كان بعد المغرب او العشاء جاء الحاكم الى
الفندق ومعه كاتبه فكتب اسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم
عليها وقفل باب الفندق عليهم فاذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل
انسان بأسمه وكتب له تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثاني
ويأتيه ببراءة من حاكمه ، ان الجميع قد وصلوا اليه وفي هذه الفنادق جميع
ما يحتاج اليه المسافرين من الازواد خصوصا الدجاج والاوز واما الغنم فهي
قليلة عندهم (٣٩) .

ويذكر وصوله الى جاوة فيقول (ووصلنا الجاوة ونزلنا الى سمطرة
فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة له وجاء بسبي كثير فبعث
لي جاريتين وغلامين (٤٠) .

ويصف طريقه من بغداد الى اعالي الفرات كما يلي (ثم رحلت من
بغداد فوصلت مدينة الانبار ثم الى هيت ثم الى حديثة ثم الى عنه وهذه
البلاد من احسن البلاد واخصبها والطريق فيما بينها كثير العسارة كأن
الماشى في سوق من الاسواق وقد ذكرنا اننا لم نر ما يشبه البلاد التي على
نهر الصين الا هذه البلاد ثم وصلنا مدينة الرحبة اول بلاد الشام ثم سافرنا
منها الى السخنة وهي بلدة حسنة اكثر سكانها من النصارى وانما سميت
السخنة لحرارة مائها وفيها يوت للرجال ويوت للنساء يستحمون فيها

ويستقون الماء ليلاً ويجعلونه في السطوح ليبرد ، ثم سافروا الى تدمر ومنها
الى دمشق الشام وكانت مدة عييتي عنها عشرين سنة كاملة^(٤١) .

ومن كل هذا يتضح ان ابن بطوطة لم يفتل عن ظاهرة اجتماعية او
اقتصادية او امنية الا والتفت اليها ودونها وما من مآكل او مشرب او طريقة
لجباية الضرائب والخراج الا ذكرها حتى أصبح كتابه سفراً مهماً في
الجغرافية الاقليمية اظهر فيه براعة الجغرافي الملم بميدان عمله وشدة في
الملاحظة يفقر اليها كثرة ممن حاولوا السير على منواله ، وبذلك ينطبق
قول كرتشمكوفسكي (ونحن اذ نودعه الان فانما نفارق آخر رحالة عربي
كبير)^(٤٢) .

الخلاصة :

يتضح مما سبق ان التراث العربي الجغرافي غني بدراساته عن مختلف
بلدان العالم ويرجع الفضل في ذلك الى الرحلات التي قام بها علماء من
العرب كرسوا حياتهم لتقصي الحقائق والمعلومات عن سائر البلدان بما
ينفع الدولة وثمناط الناس ولم تقتصر فائدة هذه الرحلات على تحقيق
هذه الاغراض في حينه وانما ظلت حتى يومنا هذا مصدر لمعرفة كثير من
الحقائق الجغرافية عن البلدان وبقاع لم تظهر له اهمية خاصة الا في
العصر الحديث ، كما يتضح ان مثل هذه الدراسات والرحلات لاغنى
عنها في الدراسة الجغرافية الحالية ولذلك فان تغير اوضاع العلم وطراز
حياة الناس ومعاشهم في سائر ارجائه بصورة مستمرة يجعلها تعرض مادة
لا تتوفر في ثانيا كتب الجغرافية الاقليمية او الدراسات النسقية او مصادر
البيانات والمعلومات وعليه فاننا نأمل ان تحظى مثل هذه الرحلات بنهاية
شبابنا والعاملين في الميدان الجغرافي وشهد الرحال لزيارة بقاع قد تبدو
ضعيفة الصلة بوطننا العربي وشؤونه الدولية .

واذا كنا ننخر بما تركه هؤلاء الرواد الاوائل من مؤلفات علمية
اعطت علم الجغرافيا سمته العربية التي لا يمكن نكرانها ، فننا نتوسم ان

يرسم طلاب الجغرافيا في الجامعات العربية خطى هؤلاء الافذاذ روحاً ومنهجاً ودقة في الملاحظة ووفاء لعلمهم واخلاصاً لأمتهم وعليهم في كل هذا ملاحظة ما يأتي :-

١ - الالتفات الى كل ظاهرة وتدوينها وان بدت لأول وهلة امرا لا يعتد به وحقيقة ليست بذى بال •

٢ - ان نجاح العالم في مختلف حقول المعرفة يعتمد على دقة وصفه للظواهر التي يتناولها في بحثه ، ونعني بذلك تعريفها تعريفاً جامعاً ومانعاً ومثال ذلك ما ذكره ابن بطوطة من معايير جمع الضرائب والشاهد على قدرة العائلة على دفعها عندما أشار الى الدخان المتصاعد من بيتها واعتباره دليلاً على امكاناتها المعاشية والمادية •

٣ - ضرورة العناية بذكر تفاصيل المسافات بين مدينة وأخرى أو اقليم وأخر وطبيعة الطرق التي تربط بينها والقرى التي تنظمها والنزل المتسيرة فيها وانواعها ومستوياتها •

٤ - النشاط الاقتصادي السائد في الاقليم وابواب الكسب في (مصر) الذي يقوم فيه وطرز الحياة المألوف فيها مما يأكله الناس او يلبسه او يأنسوا اليه وعاداتهم الاجتماعية وما فيها من ظواهر حضارية قديمة وحديثة •

٥ - البيئة الطبيعية التي تطبع الاقليم من ظروف المناخ الى ظواهر السطح واوقات المتعة والراحة في ربوعها •

كل هذه الامور لابد من الالتفات اليها وتدوينها بصورة مفصلة مزودة بالصور ووسائل الايضاح والتشويق مما يثير في نفس القارئ رغبة السفر ويعين المخطط على اتخاذ قراره ورسم مشاريعه •

ونأمل ان تكون هذه الدراسة بداية لدراسات اخرى في المستقبل اكثر تفصيلاً وايلاجاً في الموضوع ، للكتمف عن هذا الجانب من الجهود الجغرافية العربية •

الهوامش

- ١ - نعمان دهش العقيلي - تطور المراكز السياحية في العراق - مجلة التوثيق الاعلامي - المجلد الثالث العددين ٣ ، ٤ - ١٩٨٤ .
- ٢ - كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، منشورات الجامعة العربية ج ١ ص ١٧ - ١٩ .
- ٣ - المصدر نفسه ص ٢٢ - ٢٣ .
- ٤ - محمود كامل ، السياحة الحديثة ، علما وتطبيقا ، الهيئة العربية العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ص ٣٠ .
- ٥ - المصدر نفسه ص ٣٠ .
- ٦ - لقد ترجم كتاب ابن حوقل والبكري وابن بطوطة الى الفرنسية ، المصدر نفسه ص ٣٠ - ٣١ .
- ٧ - لقد زعم البرتغاليون انهم اكتشفوا هذه الجزيرة بين عام ١٥٠٧ - ١٥٢٨ م (المصدر نفسه ، ص ٣١) .
- ٨ - المصدر نفسه ص ٣٢ .
- ٩ - كراتشكوفسكي ، ص ١٧ .
- ١٠ - شاكرك خصبك ، كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي ، بغداد ١٩٧٩ ، ص ٩ .
- ١١ - المصدر نفسه ص ٤٨ - ٤٩ .
- ١٢ - المصدر نفسه ص ٥٦ - ٥٧ .
- ١٤ - المصدر نفسه ص ١٠٨ - ١٠٩ .
- ١٥ - المصدر نفسه ص ١٠٨ - ١٠٩ .
- ١٦ - المصدر نفسه ص ١٥٣ - ١٥٥ .
- ١٧ - شاكرك خصبك ، ابن بطوطة ورحلته ، النجف ١٩٧١ ، ص ٧ .
- ١٨ -

Sir Percy Sykes Ibn Battuta. The Greatest
Moslem Traveller, Sir percay sykes editor, in the
story of explaration and Adventurs, London ,
George Newenes, Ltd. Vol 2, pp. 641 - 660.

- ١٩- كرتشكوفسكي ، ص ٤٢١ .
- ٢٠- المصدر نفسه ص ٤٣١ .
- ٢١- رحلة ابن بطوطة ، دار التراث ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٠ ، ٢٠ .
- ٢٢- المصدر نفسه ص ٣١ .
- ٢٣- المصدر نفسه ص ٣٢ .
- ٢٤- المصدر نفسه ص ٣٧ .
- ٢٥- المصدر نفسه ص ٦١ - ٦٢ .
- ٢٦- المصدر نفسه ص ٧٨ .
- ٢٧- المصدر نفسه ص ٨٠ .
- ٢٨- المصدر نفسه ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ .
- ٢٩- المصدر نفسه ص ٢١٥ - ٢١٧ .
- ٣٠- المصدر نفسه ص ٢١٨ - ٢١٩ .
- ٣١- المصدر نفسه ص ٢١٦ .
- ٣٢- المصدر نفسه ص ٢٢٧ .
- ٣٣- المصدر نفسه ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .
- ٣٤- المصدر نفسه ص ٢٤٣ .
- ٣٥- المصدر نفسه ص ٣٨٠ .
- ٣٦- المصدر نفسه ص ٣٩٤ .
- ٣٧- المصدر نفسه ص ٦١٧ .
- ٣٨- المصدر نفسه ص ٦١٨ .
- ٣٩- المصدر نفسه ص ٢٦١ .
- ٤٠- المصدر نفسه ص ٦٣٤ - ٦٣٥ .
- ٤١- المصدر نفسه ص ٦٣٨ .
- ٤٢- كرتشكوفسكي ص ٤٣٣ .

المصادر

- ١ - ابن بطوطة ، في رحلته المشهورة والتي تحمل عنوان (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، دار التراث ، بيروت ١٩٧٩ .
- ٢ - شاكر خصيباك ، ابن بطوطة ورحلته ، النجف ١٩٧١ .
- ٣ - شاكر خصيباك ، كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي ، بغداد ١٩٧٩ .
- ٤ - كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، نقلة الى العربية صلاح الدين هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر منشورات الجامعة العربية بالقاهرة ج ١ ، بدون تاريخ .
- ٥ - محمود كامل ، السياحة الحديثة علما وتطبيقا ، الهيئة العربية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .
- ٦ - نعمان دهش العقيلي ، تطور المراكز السياحية في العراق ، مجلة التوفيق الاعلامي ، المجلد الثالث ، العدد ٣ ، ٤ ، ١٩٨٤ .

٧ -

Sir Percy Sykes Ibn Battuta ' The Greatest Moslem Traveller, Sir percay sykes editor, in the story of explaration and Adventurs, London , George Newenes, Ltd. Vol 2, pp. 641 - 660.